المثقفون ومشجب العجز...

خالد أبو خالد

بداية يجب أن نعترف.. بأن الشريحة العظمى من المثقفين العرب، قد اكتفت بلعب دور الشاهد لما يحدث على أرض هذا الوطن..

وسواء أخذت هذه الشهادة طابع السلب أو الايجاب فإنها كانت شهادة ناقصة في كل الأحوال..

وعلى الرغم من اكتفاء هذه الشريحة بدور الشاهد، فقد كانت تدرك أن الشاهد في مثل حالتنا يدفع أيضاً الثمن ذاته الذي يدفعه المواطن العربي.. اينما كان.. سواء قام هذا المواطن بدوره الذي يجب أن يقوم به.. أو لم يفعل..

ولعل القلة القليلة من هذه الشريحة، هي التي حاولت أن تشارك بفعل رأته ضرورياً، غير أن هذه القلة، لم تفلح ــ حتى الآن ــ بانتزاع دور نضالي متميز.. يتيح لها أن تكون ضمن حركة الجماهير، وفي طليعتها.. فاكتفت من المحاولة بالسقوط في حالة من الديكور الضروري لتزيين الواقع العربي أو لتمويه وجهه في أحسن الأحوال..

وحتى عندما حاولت أن تفسر ما يحدث، وأن تصل إلى خصائص المعضلات التي تواجه الأمة العربية في معركة المصير هذه، نظرت إلى هذا الواقع من خلال مؤسساتها التي تنتمي إليها، وحللت كل شيء خارجها، دون أن تكلف نفسها عناء النضال في داخل هذه المؤسسات بهدف تطويرها والخروج بها من حالة العجز التي تحكمها..

ورغم أن إخراج هذه المؤسسات حركات، وأحزاباً.. ودولاً، ومؤسسات واتحادات، من حالة العجز تلك لم يكن أمراً سهلاً، فإن المحاولات التي جرت في داخلها لم تتعدّ كونها محاولات فردية، وقاصرة، ادت بها إلى الفشل وإلى إخراج أصحابها من مجرد إمكانية المحاولة حيث تعرضوا للسجن، والملاحقة، والتجويع، والتشريد ووصل الأمر إلى حد التهديد بالتصفية الجسدية، دون أن تجرؤ أغلبية الشريحة على مجرد الدفاع عنهم حتى ولا بالكلمات، بل إن الكثيرين منها واصلوا التغني بالنعيم الديمقراطي في مواقعهم في الوقت الذي كانوا فيه وما زالوا يشاركون في القمع الذي يمارس على الجماهير او على زملائهم المشردين أو المقموعين بسبب من آرائهم أو وجهات نظرهم. وراحوا يستمتعون بالامتيازات التي أضفاها عليهم دورهم الجديد في زمن الهزيمة.

هذه خطوط عامة، يمكن أن تخضع للمناقشة والحوار والإغناء، ويمكن أن تطرح أسئلة كبيرة وكثيرة تشكل الاجابة عليها مضمون الثقافة العربية الجديدة.

إن مجرد تذكر أن عشرين ألفاً من الكتّاب والصحفيين السوفيات قد استشهدوا في مواقعهم القتالية اثناء الدفاع عن وطنهم السوفياتي العظيم، وخلال تحريره، يطرح الكثير الكثير على المثقفين العرب.

كما أن دور المثقفين الفيتناميين في حرب التحرير التي دامت أكثر من نصف قرن، بدءاً بالراحل العظيم هوشي منه، وصولاً إلى مثقف فيتنامي، يؤكد بوضوح أهمية الدور الذي يمكن أن يلعبه المثقفون العرب في معركة أمتهم المهددة في مجرد بقائها..

إن الواقع الموضوعي في الوطن العربي هو المشجب الذي يعلق عليه المثقفون العرب عجزهم.. ولكنهم يتغافلون دائماً عن الواقع الذاتي ومشاكله في مؤسساتهم وفي تكوينهم.. وهذا هو موضوع السنوات القادمة..

دمشق